الأهرام

جزين والانتصار والمسؤولية

من حق اللبنانيين ان يبتهجوا بعودة جزين المحررة الى الوطن. ومن حقهم اعتبار عودتها تأكيداً لقدرتهم على استعادة كل شبر محتل. ومن حق المقاومة ان تقول انها صانعة الانتصار. وان تسجل انها نجحت في تحقيق ما عجزت عنه الجيوش. وانها حولت وجود «جيش لبنان الجنوبي»، ومن ورائه الجيش الاسرائيلي، في جزين الى جحيم دائم للمحتلين ارغمهم على انسحاب مذل. ومن حق المقاومة ان تقول ان ما يصدق على جزين يصدق ايضا على القرى اللبنانية الاسيرة في «الشريط الحدودي». وان لا شيء، حتى الآن، يبرر وقف المقاومة او ارغامها على أخذ اجازة انتظار. وعودة جزين هي في النهاية لحظة كرامة في حياة بلد أذل كثيراً واستُبيح طويلاً.

ومن حق الدولة اللبنانية ان تبتهج بجزين العائدة من الأسر من دون ان تضع قيوداً في عنق الوطن. وحده دم المقاومين كان الثمن المدفوع لتحرير الارض التي عادت. لم ترضخ الدولة لشروط ولم تستدرج الى افخاخ ولم تقدم هدايا. وربما من حق الدولة ايضا ان تذكّر بأن الدعم الذي وفرته للمقاومة هو الذي مكن الاخيرة من الاستناد الى عمق متماسك لا يلتف عليها ولا يفرط بها. ولا داعي لتذكير المقاومة بأن مظلة العلاقات اللبنانية – السورية هي التي حمتها ومكنتها من جني ثمار تضحياتها.

لا مبرر لطرح السؤال الى اين تعود جزين. فأرض الوطن تعود من غربتها الى الوطن. تعود الى حضن الدولة وعدالتها ومؤسساتها. لا مجال للاجتهاد ولا مبرر للعبارات الغامضة. اذا كانت مصلحة لبنان تفرض عدم ارسال الجيش فوراً لملء اي فراغ ينجم عن انسحاب الاحتلال خوفاً من الوقوع في فخ الترتيبات، فإن ذلك لا يعني أبداً أن الدولة ليست مسؤولة عن كل شبر عاد وكل مواطن عاد.

ماذا تفعل الدولة بالمتعاملين مع العدو؟ الجواب بديهي. تتصرف الدولة بمنطق الدولة. يقول القضاء كلمته في مصير هؤلاء فيما تبعد الدولة شبح اي ممارسة يمكن ان تلطخ الانتصار. وأي رسوب للدولة في هذا الامتحان سيتجاوز في آثاره ما يمكن ان يلحق ببلدة او حي. والأكيد ان اللبنانيين لا يريدون العودة ابداً الى الأيام السوداء المذلة يوم فتك اللبنانيون ببعضهم حتى قبل ان يستكمل الاحتلال انسحابه. وفي ظل عهد يحظى موقفه من تحرير الجنوب بإجماع لبناني ويحظى بدعم سورية والمقاومة، سيكون من الصعب على اي لبناني تقبل اي ممارسات، في المناطق العائدة الى كنف الدولة، توحي باستمرار تمزق النسيج اللبناني او ايقاظ جروحه.

من حق اللبنانيين ان يبتهجوا بانتصارهم. ومن واجبهم ان يدركوا حدود هذا الانتصار، فتحقيق الاحلام يجب الا يفتح باب الأوهام. ولا يقلل من اهمية التضحيات وحجمها الالتفات الى الحقائق الباردة أولاها ان الانسحاب من جزين يأتي في وقت يواصل فيه ايهود باراك اتصالاته لتشكيل حكومته. وبعد فوزه كرر باراك ما كان أعلنه إبان حملته الانتخابية لجهة تعهده سحب القوات الاسرائيلية من لبنان في غضون عام. وترافق ذلك مع تسليم باراك بأن انسحاب الجيش الاسرائيلي من لبنان يستلزم التفاوض مع سورية، مسلماً في الوقت نفسه بتلازم المسارين السوري واللبناني وباستحالة الفصل بينهما.

تعود جزين إذاً في وقت تهب فيه على المنطقة رياح مختلفة عن رياح الجمود والانتكاس والتراجع التي ميزت عهد بنيامين نتانياهو. صحيح ان التصريحات التي أدلى بها باراك والطريقة التي يحاول بها تأليف حكومته أثارت قدراً غير قليل من الحذر. لكن الصحيح ايضاً ان باراك لا يستطيع لأسباب تتعلق بحزبه واخرى بعلاقات بلاده بالولايات المتحدة، ان يكون عهده مجرد تكرار لعهد نتانياهو مع قدر قليل من التجميل. ولهذه الأسباب يمكن توقع تحسين الأجواء مع الفلسطينيين وتطبيق الاتفاقات الموقعة معهم وفي الوقت نفسه توقع محاولة اختراق على المسار السوري – الاسرائيلي.

ولا داعي للتذكير بأن المواجهة في جنوب لبنان هي جزء من الملف الكبير وهي ورقة تتأثر بتطوراته. هذه الحقيقة ترتب على الدولة اللبنانية مسؤوليات ضخمة. ففي موازاة دعم المقاومة لا بد للدولة اللبنانية من ان تعد ملفاتها لأي مفاوضات جدية محتملة خصوصاً ان لبنان معني تماماً بمسائل المياه واللاجئين وغيرها. والمقصود ان متابعة معركة التحرير لا تعني ارجاء الاستعدادات لمفاوضات قد تكون اكثر صعوبة مع باراك لكنها قد تتمخض عن نتائج. وفي مثل هذه الحال لا بد للبنان من ان يكون حاضراً ومستعداً وجاهزاً ليدافع عن حقوقه ومصالحه. وهذا يفترض استعادة الديبلوماسية اللبنانية نشاطها والتحرك انطلاقاً من تفاهم حقيقي مع سورية في اتجاه العواصم الكبرى والمؤثرة. وهي مهمة تستدعي بالتأكيد ترميم الحكومة الحالية او تشكيل حكومة اخرى بمستوى التحديات المطروحة ■

غسان شربل

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية